بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين
محمد وآله الطيبين الطاهرين
واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين

مقالات

نشرة تعالج مقولات فكرية وثقافية
ومفاهيمية مؤثرة في مجتمعاتنا المتموّجة

سلسلة: الخطاب الديني

خطاب الأنبياء والرسل عليهم السلام

كل نبي ورسول كان له خطاب منهجي، وجّهه إلى قومه وعبّر فيه عن دعوته ومشروعه التوحيدي ومنهجيته في استقطاب الناس وإقناعهم بدعوته السماوية،

المحرر:
صادق جعفر

رضوى
للانتاج الثقافي

خطاب
الأنبياء والرسل عليهم السلام

في هذه المقالة :

ماهوخطاب الأنبياء عليهم السلام؟ وهل كان لكل منهم خطاب خاص به وبدعوته؟ أم أن خطاباتهم كلها مشتركة ومتحدة في الشكل والمضمون؟

المحتويات:

- ما هو الحجاج؟
- الخطاب القيادي النبوي
- الجزء المشترك في الخطاب
- الجزء الخاص في الخطاب

- مقدمة: ما هو الحجاج؟

الحِجَاج (أو الاستعانة بالحجج في الخطاب) هو أحد المكوّنات الأساسية في خطاب الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهو عبارة عن مجموعة أفعال أو أقوال في هيئة براهين واستدلالات مؤيدة أو ناقضة لأمر ما، تسعى إلى الإقناع وحمل المستمع إلى تبني سلوك ما أو مشاطرة رأي معين.

وهناك أربعة أصناف من الحجج الأساسية:(بروطون)

١- **حجج السلطة**: أي الحجج التي تستند إلى براهين واستدلالات لها سلطة إيجابية (تؤكد شيئاً ما) أو سلبية (ترفض شيئاً ما) في ذهن المتلقي، وبالتالي يتم الاستعانة بها في الدفاع عن رأي نؤيده، أو نقد رأي نعارضه. والسلطة في الخطاب الاحتجاجي قد تنبع من الثقة المسبقة بالخطيب، وبالتالي فأي شيء يقوله سيأخذ به متلقي الخطاب دون نقاش أو جدال تقريباً، وقد تنبع من الكفاءة أي إن المتكلم هو صاحب كفاءة أخلاقية أو مهنية أو علمية في الحقل الذي يتداوله مما يجعله مرجعاً يؤخذ بمقولاته في ذلك الشأن، أو إنه صاحب تجربة شخصية فيما يتطرق إليه من مواضيع، أو إنه صاحب شهادة حيّة (كالشاهد في المحكمة) فهو قد شهد عياناً مجريات الموضوع الذي يتداوله في خطابه.

٢- **حجج الاشتراك**: وتعني الاستدلال بآراء أو قيم أو مواقف مشتركة بين مرسل الخطاب ومتلقيه. فالآراء المقبولة جماعياً قد تساهم في عملية الإقناع، ومن أمثلتها الحكم والأمثال الشعبية في ثقافة المجتمعات، حيث أنها تستخدم لتدعيم الحجج المختلفة، ومن أمثلة القيم المشتركة ما يتعلق بأهمية العدالة الاجتماعية والاقتصادية، وحقوق الإنسان كحقه في الحرية والمساواة، وما أشبه ذلك، ويمكن لعملية استدعاء القيم في الاحتجاج أن يضفي ثقلاً معنوياً وفكرياً كبيراً إلى الحجج المستخدمة.

٣- **حجج التأطير**: وتعني عرض الأمور من وجهة نظر معينة، بتفخيم بعض المظاهر مثلاً، وتهوين أخرى، لأجل استخلاص شرعية رأي ما. ويمكن تأطير القضايا من خلال خمس آليات، الأولى هي (التعريف) أي تعريف الموضوع المطروح للتداول بطريقة حجاجية تدعم رأي صاحب الخطاب، والثانية هي (التقديم) أي تقديم الوقائع بطريقة ترفع من بعض المظاهر وتنتقص

أخرى، والثالثة هي (التفخيم) أي تكثيف وتكرار والمبالغة في التطرق للموضوع إلى أن يثبت في ذهن المتلقي، والرابعة هي (الوصل) أي وصل الموضوع المطروح للتداول بمواضيع وقيم وقضايا أخرى بحيث تستحدث تموضعاً جديداً ومقبولاً له في ذهن المتلقي، والخامسة هي (الفصل) وهي عكس الآلية السابقة أي أنها تفصل الموضوع المطروح عن بعض القضايا والقيم والآراء التي تنعكس سلباً في ذهن المتلقي، فتنقّحه منها وتجعله أكثر مقبولية لديه.

٤- **حجج التماثل**: ترتكز حجة التماثل على إقامة تماثل وتشابه ومقارنة بين موضوعين أو واقعين، بحيث يسمح بنقل الخصائص المعروفة لأحدهما إلى الآخر بعلّة التشابه والتماثل بينهما. والتماثل نمطين، فقد يكون فعلاً هناك تشابه بين الموضوع الذي يريد صاحب الخطاب الترويج له وبين الموضوع الذي يستعين به في المثال (كالقول بأن فلان يشبه علّان في الشجاعة)، أو قد يكون التشابه ناتج عن استخدام الاستعارة (كالقول بأن فلان يشبه الأسد)، وفي كل الأحوال قد يكون التماثل المستخدم دقيقاً وقد يكون مبالغاً فيه، كما إنه بطبيعة الحال يمكن استعماله في الموارد الإيجابية أو السلبية.

- الخطاب القيادي النبوي:

كل نبي ورسول كان له خطاب منهجي، وجّهه إلى قومه وعبّر فيه عن دعوته ومشروعه التوحيدي ومنهجيته في استقطاب الناس وإقناعهم بدعوته السماوية، ولكن نشير قبل ذلك إلى شكل الخطاب النبوي المستعرض في القرآن الكريم، فهو خطاب عناوينه عامة وكبرى، أي إنه يُعرّف بالعناوين العامة التي تطرق إليها كل نبي مع قومه، فخطاب نوح في القرآن الكريم معروض على شكل فقرات موجزة جداً مثل ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾(الشعراء ١٠٨)، فلا يعقل أن نوحاً عليه السلام قضى تسعمائة وخمسون سنة من عمره يردد هذه الجملة فقط، وإنما المقصود أنه عليه السلام قضى وقته في دعوتهم إلى تقوى الله وطاعته عبر التطرق إلى كل ما يمكن من مواضيع وأفعال وأقوال وأمثولات وأحكام ترتبط بتقوى الله تعالى وطاعة نبيه، وإنما الآيات الشريفة هنا تشير إلى القيمة الكبرى في خطاب نوح عليه السلام، وهكذا الأمر بالنسبة لبقية الأنبياء.

وكمقدمة نشير إلى ملاحظات سريعة، وهي:

١. إن الخطاب يجب أن يكون مطابق للمشروع وينبعث من سياقه ويتناغم مع برنامج النبي صاحب الخطاب، قال تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا**﴾(مريم ٩٧)، ولا معنى للإنذار أو التبشير بشيء إذا كان بعيداً عن الدعوة.

٢. الخطاب يوجه ليفهمه عامة الناس المستهدفون وليس لقسم منهم كالنخب مثلاً أو كالعشيرة فقط، إلا إذا كانوا هم فقط المستهدفون فعلاً بالدعوة وبأمر من الله تعالى بحصر الدعوة فيهم، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾(إبراهيم ٤)، ومعنى بلسان قومه أي باللغة والطريقة والأعراف التي يفقهونها ويتعاملون بها.

٣. إن الخطاب لابد وان يكون بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿**لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾(الشعراء ١٩٤-١٩٥)، ومعنى عربي مبين أي فصيح بيّن الألفاظ والمعاني(ابن منظور)، فلا يصح من النبي أو القائد أن يكون خطابه غامضاً ومبهماً، قال تعالى عن لسان موسى عليه السلام: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي**﴾(القصص ٣٤).

٤. الخطاب هو التزام جدّي يبتعد عن هذرمة الشعراء وعن إغواء الناس دون عمل والتزام من قبل صاحب الخطاب نفسه، قال تعالى: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا**﴾(الشعراء ٢٢٤-٢٢٧).

وفيما يلي توصيف لخطاب الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وسوف نستشهد بما ورد عن لسانهم في سورة الشعراء،

وسنلاحظ بأن هناك جزئين في خطاب كل منهم، الأول هو خطاب مشترك توافقوا عليه جميعاً وهو المتعلق بالجانب العقائدي المحض، والثاني هو الجزء الخاص بدعوة كل نبي ومشروعه ومنهجيته في العمل، وهو يختلف من نبي إلى آخر.

- الجزء المشترك في خطاب الأنبياء والرسل عليهم السلام:

تتطرق سورة الشعراء بشكل متتالي إلى خطاب مجموعة من الأنبياء هم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، فنلاحظ أن هناك جزء متماثل بصورة شبه مطلقة في خطاباتهم جميعاً، ويبدو من ظاهره أنه الجزء المتعلق بتقوى الله وطاعة النبي والخلوص إلى الله تبارك وتعالى، وقد ورد على لسان كل نبي كالتالي (وفيما يلي نموذج فقط لما ورد على لسان نوح عليه السلام، وتكرر حرفياً على لسان بقية الأنبياء عليهم السلام): ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء ١٠٦-١٠٩).

- الجزء الخاص في خطاب الأنبياء عليهم السلام:

وأما الجزء الخاص بكل خطاب فهو المتعلق بمشروع ومنهجية عمل كل نبي، وهو كالتالي:

١. نوح عليه السلام: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ، قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(الشعراء ١١٠-١١٥).

٢. هود عليه السلام: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(الشعراء ١٢٨-١٣٥).

٣. صالح عليه السلام: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(الشعراء ١٤٦-١٥٢).

٤. لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ، قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ، قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾(الشعراء ١٦٥-١٦٨).

لماذا بُعث الأنبياء عليهم السلام؟

عن الشيخ الصدوق في علل الشرائع: الدقاق، عن الأسدي، عن النخعي، عن عمه النوفلي، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام، أنه سأله رجل، فقال: لأي شيء بعث الله الأنبياء والرسل إلى الناس؟

فقال عليه السلام: لئلا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل، ولئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولتكون حجة الله عليهم، ألا تسمع الله عزو جل يقول حكاية عن خزنة جهنم واحتجاجهم على أهل النار بالأنبياء والرسل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾(الملك ٨-٩).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في بيان ذلك: (نهج البلاغة) واصطفى سبحانه من ولده (أي ولد آدم عليه السلام) أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرّسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقّه واتّخذوا الأنداد معه واجتالتهم الشّياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتّبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويُروهم الآيات المقدّرة من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تُحييهم وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم وأحداث تتابع عليهم، ولم يخل سبحانه خلقه من نبيّ مرسل أو كتاب منزل أو حجّة لازمة أو محجّة قائمة، رسل لا تقصّر بهم قلّة عددهم ولا كثرة المكذّبين لهم، من سابق سُمّي له من بعده، أو غابر عرّفه من قبله، على ذلك نسلت القرون ومضت الدّهور، وسلفت الآباء وخلفت الأبناء.

وقال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ

الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(البقرة ٢١٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً، رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(النساء ١٦٣-١٦٥).

وكما هو واضح من الروايات الشريفة والآيات الكريمة، إن علة بعث الرسل هو إقامة الحجة على الناس، وإقامة الحجة تكون بالأمور التالية:

١. دعوة الناس إلى اتباع الدين وهدايتهم إليه، فالدين دليل لحياة الإنسان وناصح له لما فيه خيره وصلاحه.

٢. تصدي الأنبياء عليهم السلام للشأن العام، فالدين الذي يدعون إليه يعطي الناس حقوقاً ويفرض عليهم واجبات ويضبط معاملاتهم ويقيّد انحرافاتهم، وهذه كلها من الشؤون العامة في المجتمعات.

٣. وبالتالي فالأنبياء عليهم السلام - ومن يسترشد بهم - يتحملون مسئولية الإصلاح المجتمعي والتغيير نحو الأفضل، والأمر بالمعروف والخير والصلاح، والنهي عن المنكر والفساد والبغي.

٤. أي أنهم عليهم السلام يقومون بدور العالم المرشد، وليس المتدين العابد فقط المستكفي بعبادته، ولا المتدين العالم فقط المستكفي بعلمه، وإنما المتدين العالم والمرشد الذي يتحمل مسئولية إصلاح شؤون الناس وقيادتهم وإرشادهم لما فيه خيرهم في دنياهم وآخرتهم.

٥. **شعيب عليه السلام: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾**(الشعراء ١٨١-١٨٤).

وبعد هذه العرض، سنتطرق لملامح خطاب كل نبي من الأنبياء، كالتالي:

- أولاً: خطاب نبي الله نوح عليه السلام

تركز سورة نوح (آية ١-٢٠) على خطابه العقائدي وعلى الجهد الذي بذله في دعوته لقومه، فهو قد دعاهم ليلاً ونهاراً وجهاراً وسرّاً دون كلل أو ملل، وكان الخطاب الذي استعمله ليرشدهم عقائدياً هو تبيان نعم الله عليهم، وهي حجة تأطيرية كما يبدو، فبيّن لهم جانب العفو والرحمة عند رب العالمين ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾، ثم بين جانب النعمة ﴿**يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً**﴾، وذكّرهم بقدرة الله تعالى في خلقهم وتكوينهم وحفظهم ورعايتهم ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَاراً، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً**﴾، ثم ذكّرهم بنشأتهم الأولى وموتهم وبعثهم، وذكّرهم بالسهولة التي جعل الله تعالى بها حياتهم فبسط لهم الأرض ومسالكها ﴿**وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً، وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجاً**﴾.

والواضح أن هذا الخطاب يتعلق بأصل الدعوة إلى عقيدة التوحيد وإلى كل ما يجب أن ينبّههم به من معارف وسنن إلهية تعيدهم إلى صوابهم وإلى الإيمان بخالقهم الرحيم المنعم القادر المحيي والمميت والذي إليه مرجع الأمور في الدنيا والآخرة.

وفي سورة هود (آية ٢٥-٣٥) يتم تناول الأمر من زاوية أخرى حيث يواجه نوح عليه السلام منطق الاستعلاء لدى قومه ومحاولتهم جعل الدين للنخبة فقط ليكون مطيةً لهم يستغلونها كيفما شاءوا ومطالبتهم له بنبذ المؤمنين من عامة الناس والمستضعفين، إلى جانب أنه عليه السلام بيّن لهم عدم إمكانية السماح لهم باستغلال العقيدة والدعوة لمصالحهم الخاصة ﴿**لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ**﴾ وإنما هي لمصلحة الناس والمؤمنون عامة ﴿**وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا**﴾، كما إن هذا الخطاب ملحق بجزء آخر يتعلق بدفاع نبي الله عن نفسه وإبعاد تهمة الافتراء على الله أو إنه يختلق كل ما يدعيه، وتأكيده أنه ناصح صادق لهم

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

وتأتي سورة الأعراف (آية ٥٩-٦٣) لتستعرض جزء من الخطاب الذي يركز فيه النبي على تبييض صفحته وتبيان أنه مجرد ناصح ومرشد أمين ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ والفرق بينه وبينهم هو أنه متصل بالوحي ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، وأنه ليس بعجب أن يرسل الله تعالى رجل منهم لينذرهم، فهذا من وسائل الرحمة، فالقريب أدرى باحتياجات القوم وأرأف بهم من الغريب عنهم ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وأخيراً تستعرض الآيات الشريفة من سورة يونس (آية ٧١-٧٢) خطاب نوح عليه السلام عندما وصل معهم إلى مرحلة الصدام والتحدي واقترب أجل عذابهم، فتحدّاهم جميعاً وأعلن توكله على الله العلي القدير، قال تعالى عن لسان نبيّه: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾.

- ثانياً: خطاب نبي الله هود عليه السلام

تستعرض الآيات الشريفة في سورة الأعراف (آية ٦٥-٧٠) الأجزاء الأربعة من خطاب هود عليه السلام، فهناك الجزء العقائدي المتعلق بالدعوة إلى التوحيد ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، والجزء المتعلق بصلاحيته لحمل الرسالة وهدايتهم للحق ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾، والجزء المتعلق ببرنامج عمله واستخدم فيه حجج التماثل ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، والجزء المتعلق بالإنذار النهائي ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

وفي سورة هود (آية ٥٠-٥٧) استعراض مشابه للسابق، مع التركيز على الجانب العقائدي التوحيدي ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ و ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾، والوعد بمستقبل أفضل في حال تصديقهم به ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، أو الخسران المبين في حال عصيانهم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

- ثالثاً: خطاب نبي الله صالح عليه السلام

وهو خطاب توحيدي سواء من حيث تبيين المعتقدات أو الآيات والمعجزات أو النعم والمنح التي وهبهم إيّاها الله تبارك وتعالى ﴿بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو يستخدم حجج التأطير، وكذلك حجج المماثلة ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(الأعراف ٧٣-٧٤).

- رابعاً: خطاب نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام

يركز خطاب إبراهيم الخليل عليه السلام على الجانب التوحيدي، ويستخدم حجج المماثلة في المقارنة بين خالق الكون تبارك وتعالى وبين آلهتهم الوثنية ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾، ويتطرق في خطابه إلى دوره كرسول وأنه مكلّفٌ بالبلاغ وبالتبيين، أي بالمبالغة في تبيين أمر الله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(العنكبوت ١٦-١٨).

وينبه قومه في قسم آخر من خطابه إلى أنهم اتبعوا تلك الأوثان بسبب أهوائهم والرغبة في صنع التحالفات بينهم، ولكن ذلك لن ينفعهم يوم القيامة وسيلعن بعضهم بعضا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾(العنكبوت ٢٥).

وفي سورة الشعراء يستعمل في خطابه التوحيدي حجج الاشتراك، فهو يبين قدرة الله تعالى في خلقه وهدايته وإطعامه وإسقائه وشفائه وإماتته وإحيائه، وهذه كلها أمور مشتركة بين البشر جميعهم وليست متعلقة فقط بإبراهيم عليه السلام، فهو يكلمهم عن نفسه ولكنه يعنيهم أيضاً بمنطق (إياك أعني واسمعي يا جارة)، قال تعالى عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾(الشعراء ٧٥-٨٢).

وفي سورة الأنعام يحاجج إبراهيم قومه بحجة تأطيرية استخدم فيها إطار الأمن في الدنيا ويوم القيامة، وبيّن في خطابه لهم ثقته العالية بالله تعالى وعدم خوفه منهم ومن شركهم، قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾(الأنعام ٨٠-٨٣).

- خامساً: خطاب نبي الله يوسف عليه السلام

يبيّن يوسف الصديق عليه السلام في خطابه الجانب المتعلق بمشروعه الإصلاحي ﴿نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾، والجانب المتعلق بنبوته ﴿عَلَّمَنِي رَبِّي﴾، وكذلك المتعلق بدعوته التوحيدية ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾، واستخدم حجج التأطير ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾، وحجج التماثل ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ﴾، وحجج السلطة ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾، قال تعالى على لسان يوسف حينما طلب منه صاحباه في السجن تأويل رؤيتيهما: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(يوسف ٣٦-٤٠).

- سادساً: خطاب نبي الله شعيب عليه السلام

خطاب نبي الله شعيب عليه السلام في سورة الأعراف (آية ٨٥-٨٩) يتطرق بوضوح إلى دعوته التوحيدية ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾، والى مشروعه الإصلاحي ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، وإلى نعم الله على القوم ﴿كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ عددياً واقتصادياً وقوةً ورخاءً وغيرها، ويشير إلى استقامته كصاحب دعوة ﴿افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ وإلى توكله على الله سبحانه وتعالى.

-سابعاً: خطاب نبي الله موسى الكليم عليه السلام

وخطاب موسى كليم الله عليه السلام إلى فرعون في سورة طه (آية٤٣-٥٢) يتطرق إلى عقيدة التوحيد ﴿رَسُولَا رَبِّكَ﴾ والى مشروعه التحريري ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، واستخدم عليه السلام التأطير كحجّة ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، والملاحظ في الآيات الشريفة التركيز على أسلوب الخطاب، فمشروع موسى وهارون عليهما السلام يكاد يكون فريداً من نوعه بين الأنبياء حيث أنه يبدأ بمخاطبة الطاغية مباشرة وليس قومه، ويهدف إلى إخراج فئة كبيرة من الناس من تحت سلطته، ولذلك تجد التركيز على عدم الاستفزاز في الخطاب ﴿قَوْلًا لَيِّنًا﴾، وإنهما أظهرا بعض قوتهما من البداية ﴿جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ لكي لا يستخف ويبطش بهما.

وفي سورة الأعراف (آية ١٠٤-١٠٥) تستعرض

الآيات الشريفة سياق مشابه ولكن بصورة موجزة، حيث يقول تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

- ثامناً: خطاب نبي الله عيسى المسيح عليه السلام

وخطاب روح الله عيسى عليه السلام كذلك يتطرق لمنهجيته في العمل ﴿أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ و ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾، ولمشروعه التجديدي للشريعة ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾، ولدعوته التوحيدية ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾، قال تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران ٤٥-٥٢).

- خاتمة: الخطاب جزء من المشروع القيادي

والخلاصة هي أنه لابد لكل قائد من خطاب يؤثر في جمهوره وأتباعه، و أن يكون خطابه متماثلاً مع مشروعه، وإلا فسيكون ذلك المشروع بلا صوت حقيقي يعبر عنه، وبلا ملامح تسمح لعامة الناس بفهمه واستيعابه.

- مصادر:

١- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، الطبعة الأولى، (٢٠٠٥م/ ١٤٢٦هـ)، (تدقيق: البقاعي، د. يوسف؛ شمس الدين، إبراهيم؛ علي، نضال)، مؤسسة العلمي للمطبوعات، بيروت.

٢- الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى. **نهج البلاغة: المختار من كلام أمير المؤمنين** عليه السلام، الطبعة الخامسة، (٢٠١٠م/ ١٤٣١ه)، (تحقيق: الميلاني، السيد هاشم)، المجمع العالمي لأهل البيت، بيروت.

٣- الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه. **علل الشرائع**، الطبعة الثانية، (١٤٢٨ه/ ٢٠٠٧م)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٤- بروطون، فيليب. **الحجاج في التواصل**، الطبعة الأولى، (٢٠١٣م)، (ترجمة: مشبال، محمد؛ العلمي، عبدالواحد التهامي)، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

مقالات

تصدر عن:
رضوى للإنتاج الثقافي

للمراسلات:
maqalatnewsletter@gmail.com

توضيح:
محتوى **مقالات** متاح للراغبين في الاقتباس، مع ملاحظة نسب الاقتباسات إلى النشرة.

رضوى
للانتاج الثقافي